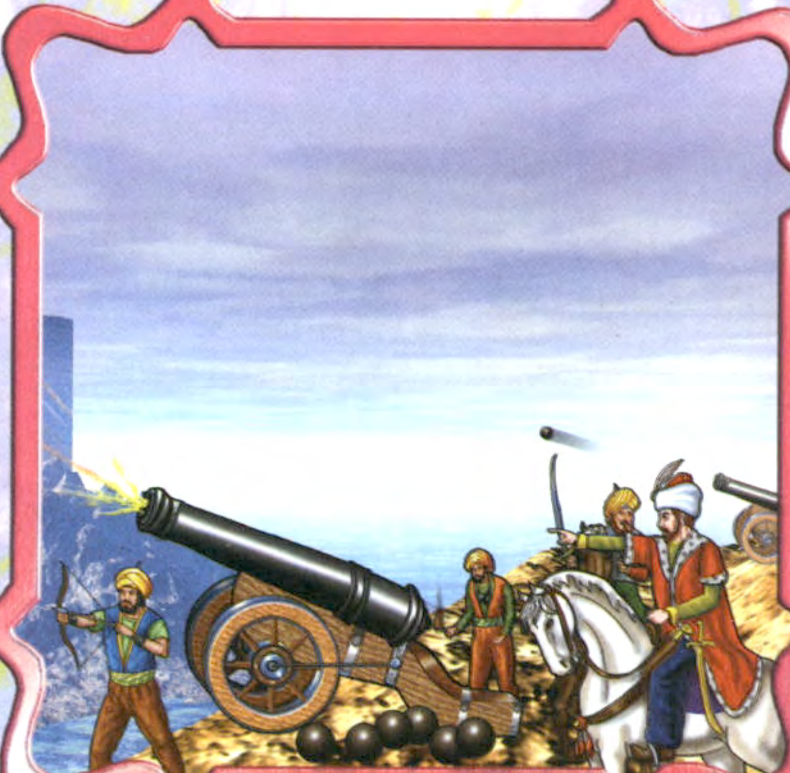
أبطال الإسلام

السلطان محمد الفاتح

(فاتح القسطنطينية)



المجد

تاليف: د/ على راشد

رسوم: ماهر عبد القادر

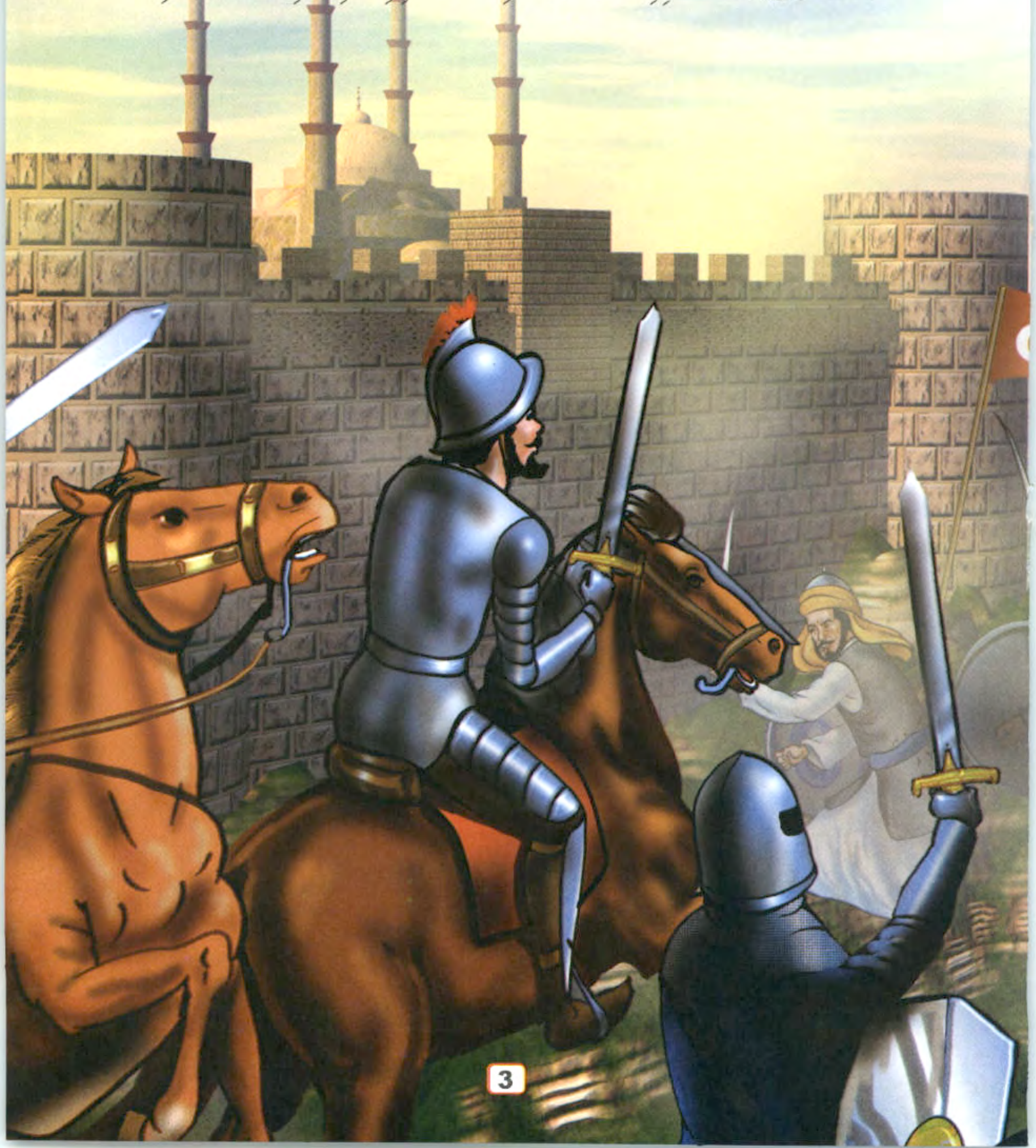
برقم إيداع 2013/7071

المجد للنشر والتوزيع 0106372799

تُعَدُّ مَدِينَةُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ (مَدِينَةُ إِسْتَانْبُول التُّرْكِيَّةُ الْآنَ) مِنْ أَكْبَرِ الْمُدُنِ فِى وَقْتِهَا، فَهِىَ تَصِلُ بَيْنَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ وَالْبَحْرِ الْأَسْوَدِ، وَتَصِلُ بَيْنَ قَارَّتَىْ آسْيَا وَأُورُوبَّا، كَمَا كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَاكِزِ التِّجَارِيَّةِ فِى الْعُصُورِ الْوُسْطَى.



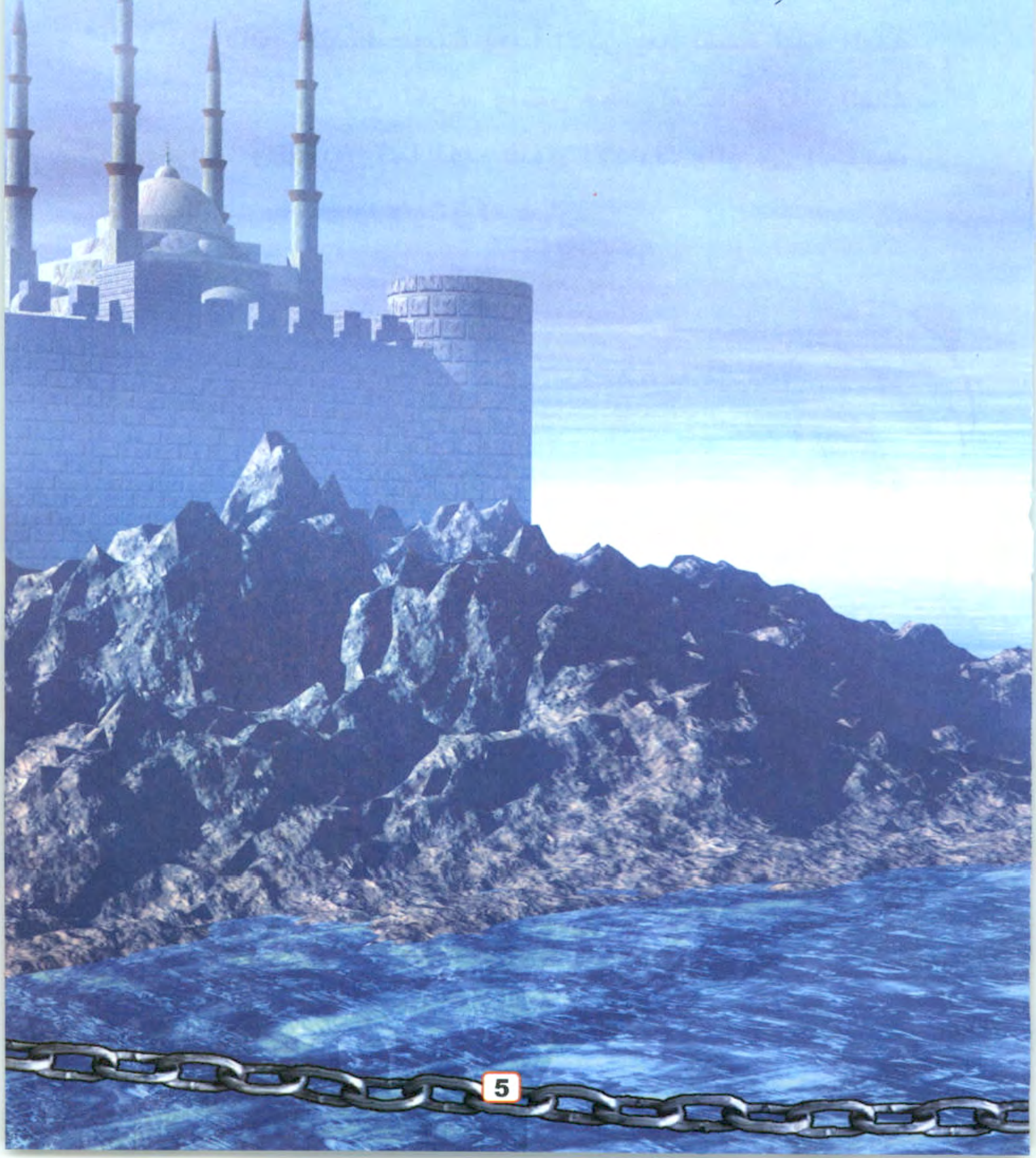
حَيْثُ كَانَتْ عَاصمَةَ الْإمْبَرَاطُوريَّة الْبيزَنْطيَّة، قَالَ عَنْهَا الْقَائدُ الْفَرَنْسيُّ الْكَبيرُ (نَابُلْيُونُ): "إنَّهَا تَصْلُحُ لتَكُونَ عَاصمَةَ الْعَالَم أَجْمَعَ لمَوْقعهَا الْفَريد، فَمَنْ يَسْتَطيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا يَمْلكُ الْعَالَمَ". وَلهَذَا كَانَ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْمُسْلمينَ وَالرُّومَان عَلَى هَذه الْمَدينَة عَلَى أَشُدِّه.



وَكَانَ إِصْرَارُ الْمُسْلمينَ عَلَى فَتْحِ الْقُسْطَنْطينيَّة - علاوَةً عَلَى مَوْقعها - لِحَديث الرَّسُولِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "لَتَفْتَحُنَّ الْقُسْطَنْطينيَّةَ عَلَى يَدِ رَجُلٍ....، فَلَنِعْمَ الْجَيْشُ جَيْشُهَا، وَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا".



لذَا كَانَتْ هُنَاكَ مُحَاوَلَاتٌ عَدِيدَةٌ - بَلَغَتْ عَشْرَ مُحَاوَلَاتٍ- لِفَتْحِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى مَدَى ٨٠٠ سَنَةٍ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَتَّى هَارُونَ الرَّشِيدِ، بَاءَتْ كُلُّهَا بِالْفَشَلِ حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ.



وُلدَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ عَامَ ٨٣٢ هـ - ١٤٢٩م، وَاهْتَمَّ وَالدُهُ السُّلْطَانُ مُرَادٌ بتَنْشئَته حَيْثُ كَانَ يُعدُّهُ للْحُكْم منْ بَعْده، وَيَتَوسَّمُ فيه الْخَيْرَ، لنُبُوغه وَقُوَّة شَخْصيَّته، فَغَرَسَ فيه حُبَّ الْعلْم، وَحُبَّ الاسْتقَامَة وَنُصْرَة الإسْلَام، وَرَسَّخَ فى نَفْسه أَنْ يَكُونَ هُوَ قَاهرَ الرُّومَان وَفَاتحَ الْقُسْطَنْطينيَّة وَبَدَأَ الابْنُ يُعدُّ نَفْسَهُ لهَذه الْمُهمَّة الشَّاقَّة، فَحَفظَ الْقُرْآنَ الْكَريمَ، وَأَتْقَنَ خَمْسَ لُغَات، ثُمَّ تَعَلَّمَ الْفَلَكَ وَالْجُغْرَافْيَا وَالتَّاريخَ، كَمَا تَعَلَّمَ فُنُونَ الإدَارَة، وَالْفُنُونَ الْحَرْبيَّةَ حَتَّى صَارَ فَارسًا مغْوَارًا لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ.



وَتَوَلَّى السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ عَقِبَ وَفَاةِ وَالِدِهِ عَامَ ٨٥٥ هـ - ١٤٥٢ م وَهُوَ فِى الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ، وَبَدَأَ فَوْرًا تَنْفِيذَ حُلْمِهِ بِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَأَخَذَ يَسْتَعِينُ بِأَهْلِ الْخِبْرَةِ وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْأَسَالِيبِ وَالْخُطَطِ الْحَرْبِيَّةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْفَتْحِ، وَسَيْطَرَتْ فِكْرَةُ الْفَتْحِ عَلَى عَقْلِ السُّلْطَانِ وَجَوَارِحِهِ، فَلَا يَتَحَدَّثُ إِلَّا فِى أَمْرِ الْفَتْحِ، الَّذِى مَلَكَ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ.



وَسَاقَتْ لَهُ الأَقْدَارُ مُهَنْدِسًا يُدْعَى "أُورْبَانَ" عَرَضَ عَلَيْه أَنْ يَصْنَعَ لَهُ مدْفعًا ضَخْمًا يَقْذِفُ قَذَائِفَ هَائِلَةً تَكْفِي لِفَتْحِ أَسْوَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّة فَرَحَّبَ بِهِ السُّلْطَانُ، وَأَمَرَ بِتَزْوِيدِهِ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعَدَّاتٍ، وَلَمْ تَمْضِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ حَتَّى تَمَكَّنَ "أُورْبَانُ" مِنْ صُنْعِ مِدْفَعٍ عَظِيمٍ يَزِنُ ٧٠٠ طُنٍّ، يَرْمِي بِقَذَائِفَ هَائِلَةٍ تَكْفِي لِهَدْمِ أَسْوَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.

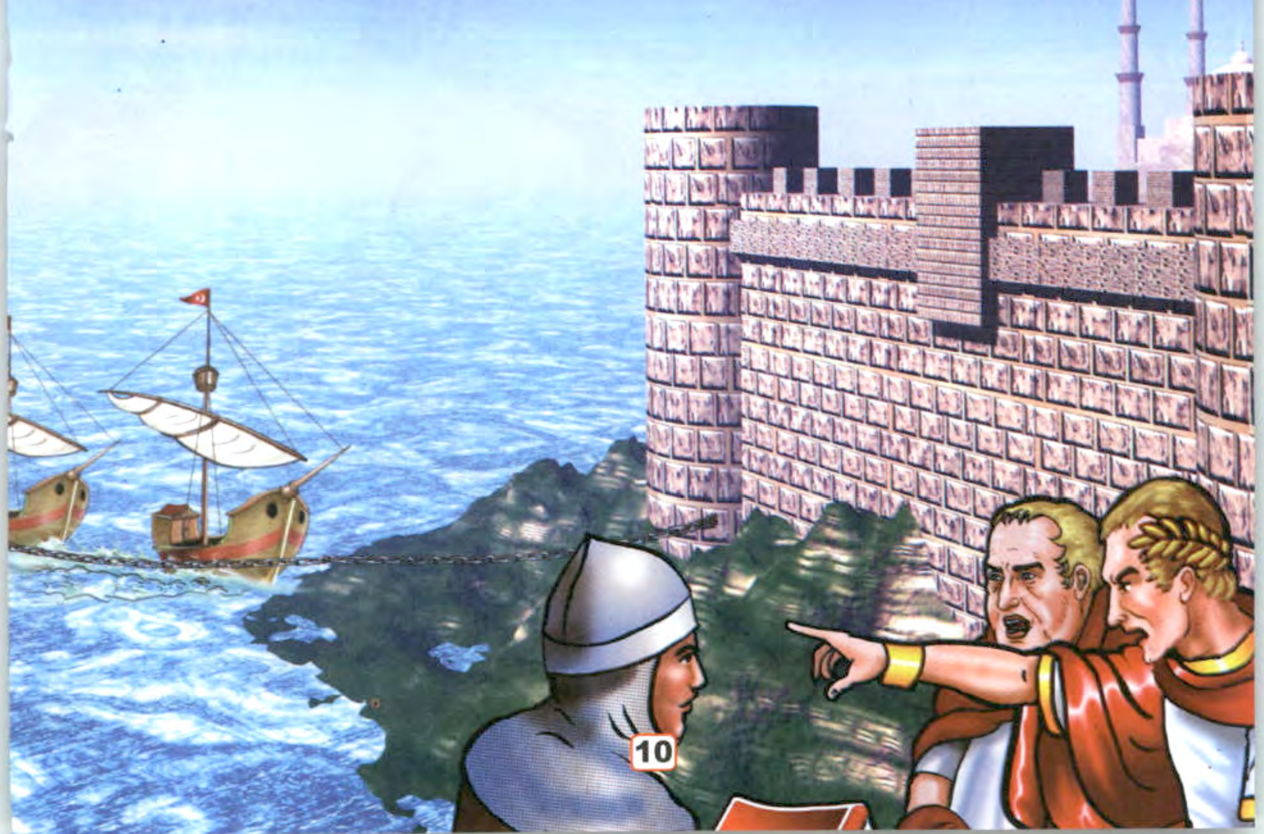


وَسَعدَ السُّلْطَانُ بِهَذَا الْمدْفَع الرَّهِيبِ أَيَّمَا سَعَادَةٍ، وَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُوَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ تَحَدَّثْتَ عَنْهُ، أَنَا فَاتِحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.



عنْدَمَا علمَ الإمْبرَاطُورُ "قُسْطَنْطينُ" بتَوَجُّهات السُّلْطان الْعُثْمانىِّ فى الْقُدُوم إلَى الْقُسْطَنْطينيَّة لفَتْحها، أَرْسَلَ إلَيْه يَطْلُبُ منْهُ أَلَّا يَفْعَل ذَلك، فَرَفَض السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْعُثْمَانىُّ هَذَا الطَّلَبَ، وَأَعْلَنَ الْحَرْبَ رَسْميًّا على الدَّوْلَة الْبيزَنْطيَّة، فَمَا كَانَ منَ الإمْبرَاطُور الرُّومىِّ إلَّا أَنْ أَغْلَقَ أَبْوَابَ مَدينَته، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ سَيُدَافعُ عَنِ الْقُسْطَنْطينيَّة لآخر قَطْرَة منْ دَمه.

وَأَخَذَ كُلُّ جَيْش يَتَأَهَّبُ للِّقَاء الْمُرْتَقَب وَالْمَعْرَكَة الْقَادمَة، فَبَدَأَ الإمْبرَاطُورُ "قُسْطَنْطينُ" يُحَصِّنُ مَدينَتَهُ وَيُصْلحُ الأَجْزَاءَ الْمُتَهَدِّمَة منْ أَسْوَارهَا، وَأَعَدَّ وَسَائلَ الدِّفَاع الْمُمْكنَةَ، وَمنْهَا تَجْميعُ الْمُؤَن وَالْغلال اسْتعْدَادًا لِحَرْب طَويلَة، وَأَيْضًا وَضَعَ سَلاسل حَديديَّةً ضَخْمَةً فى الْبَحْر أَمَامَ الْمَدينَة لِمَنْع السُّفُن الْحَرْبيَّة منَ الْوُصُول إلَى أَسْوَار الْمَدينَة.



وَصَلَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانىُّ فى جَيْشه الضَّخم قَريبًا منَ الْمَدينَة الْمُحصَّنَة فى شَهْر رَمَضَانَ عَامَ ٨٥٥ هـ - الْمُوافق الْخَامس منْ أَبْريل عَامَ ١٤٥٣ م ، وَتَمَّ بنَاء مَرْكَز لقيَادَة السُّلْطَان مُحمَّد لمُرَاقَبَة أَرْض الْمَعْرَكَة وَحصَار الْمَدينَة، الَّتى تَمَّ تَطْويقُهَا منَ الْبَرِّ وَالْبَحْر بقُوَّات ضَخْمَة بَلَغَتْ ٢٦٥ أَلْفَ مُقَاتل، وَ ٣٥٠ سَفينَةً حَرْبيَّةً.

وَبَدَأَ الْحصَارُ الْفعْلىُّ للْمَدينَة، وَطَلَبَ السُّلْطَانُ "مُحَمَّدٌ" منَ الإمْبرَاطُور قُسْطَنْطينَ تَسْليمَ الْمَدينَة لَهُ، وَتَعَهَّدَ باحْترَام سُكَّانهَا وَتَأْمينهِمْ عَلَى أَرْوَاحهِمْ وَمُعْتَقَدَاتهِمْ وَمُمْتَلَكَاتهِمْ، وَلَكنَّ الإمْبرَاطُورَ رَفَضَ.

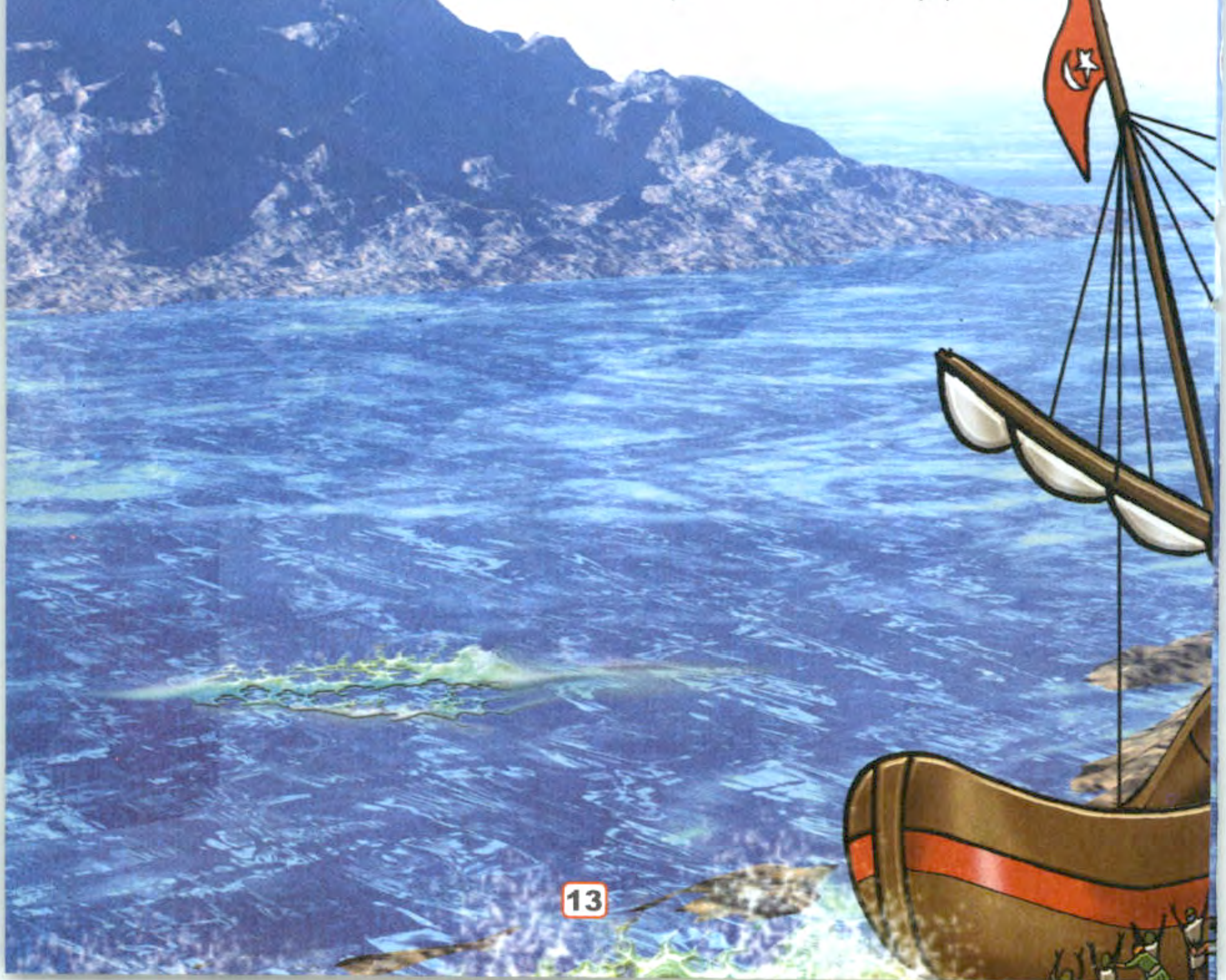


فَأمَرَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِىُّ بِإطْلَاقِ الْقَذَائِفِ الْهَائِلَةِ عَلَى أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ لَيْلَ نَهَارَ، وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ بَدَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُعَانُونَ مِنْ نَقْصِ الْمُؤَنِ، وَيَتَوَقَّعُونَ سُقُوطَهَا مِنْ يَوْمٍ لآخَرَ.

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُصُولِ عَدَدٍ مِنَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ إلَى الْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ، وَلَكِنَّ السَّلَاسِلَ الْحَدِيدِيَّةَ الضَّخْمَةَ مَنَعَتْهَا؛ فَوَضَعَ السُّلْطَانُ "مُحَمَّدٌ" خُطَّةً عَبْقَرِيَّةً لِوُصُولِ عَدَدٍ مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ إلَى الْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ.



فَفى لَيْلَة منَ اللَّيَالى زَادَت الْمدْفَعيَّةُ ضَرَبَاتها بشدَّة لأَسْوَار الْمَدينَة، وَفى الْوَقْت نَفْسه تَمَّ تَحْريكُ هَذه السُّفُن عَلَى الْيَابسَة عَلَى أَلْوَاح خَشَب دُهنَتْ بالزَّيْت، وَيَجُرُّهَا عَدَدٌ كَبيرٌ منَ الثِّيرَان وَالْجُنُود لتُفَاجأَ قُوَّاتُ الإمْبرَاطُور صَبَاحًا بدُخُول هَذه السُّفُن نَاحيَةَ الأَسْوَار، وَصَعدَتْ أَعْدَادٌ هَائلَةٌ منْ جُنُود الْمُسْلمينَ بسَلالم خَشَبيَّة عَلَى الأَسْوَار، وَرَغْمَ مُحَاوَلَة جُنُود الرُّوم مَنْعَ جُنُود الْمُسْلمينَ من اجْتيَاز أَسْوَار الْمَدينَة، إلاَّ أَنَّ التَّدَفُّقَ الْهَائلَ لجَيْش الْمُسْلمينَ بَدَأَ إلَى دَاخل الْمَدينَة الَّتى سَقَطَتْ أَخيرًا وَقُتلَ الإمْبرَاطُورُ "قُسْطَنْطينُ" وَقيَادَاتُ جَيْشه، وَنَجَحَ الأُسْطُولُ الْعُثْمَانىُّ فى رَفْع السَّلاسل الْحَديديَّة الضَّخْمَة لتَعْبُرَهَا كُلُّ السُّفُن،



وَدَخَلَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِىُّ مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ مَدِينَةَ الْقُسْطَنْطِينِيَّة ظَافِرًا، وَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِه، وَسَجَدَ للّه شُكْرًا عَلَى هَذَا الانْتِصَار، وَذَاكَ الْفَتْحِ الْعَظِيم، وَمَنَحَ الأَمَانَ للشَّعْبِ الْبِيزَنْطِىِّ، وَحَوَّلَ كَنِيسَة "أَيَا صُوفْيَا" إِلَى مَسْجِد، وَأَمَرَ بِإِقَامَةِ مَسْجِد فِى مَوْضِعِ الصَّحَابِىِّ الْجَلِيل "أَبِى أَيُّوبَ الأَنْصَارِىِّ" الَّذِى كَانَ ضِمْنَ صُفُوفِ الْحَمْلَةِ الأُولَى لِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّة.



وَمُنْذُ هذَا الْفَتْح صَارَتْ هَذِه الْمَدِينَةُ الَّتى أَصْبَحَ اسْمُهَا "إِسْتَانْبُولَ" عَاصِمَةً للدَّوْلَة الْعُثْمَانيَّة.

وَبَعْدَ إتْمَام النَّصْر الَّذى حَقَّقَهُ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِح وَهُوَ لا يَزَالُ شَابًا لَمْ يَتَجَاوَزِ الْخَامسَةَ وَالْعشْرِينَ منْ عُمْره اسْتَكْمَلَ فُتُوحَاته فى بِلَاد الْبَلْقَانِ، فَفَتَحَ بِلَادَ: الصِّرْب، وَأَلْبَانْيَا، وَالْبُوسْنَة وَالْهِرْسك، وَغَيْرَهَا.



وَبَعْدَ حَيَاةٍ اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثِينَ عَامًا مِنَ الْحُكْمِ حَتَّى مَاتَ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ عَامَ ٨٨٩ هـ - ١٤٨١ م، وَعُمْرُهُ ٥٣ عَامًا وَيُقَالُ إِنَّ أَحَدَ أَطِبَّائِهِ قَدْ دَسَّ السُّمَّ لَهُ فِى طَعَامِهِ، رَحِمَ اللهُ السُّلْطَانَ مُحَمَّدًا الْفَاتِحَ وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

